الحريّة أولاً!

من أسبغ ما غمر به الخالق عبده الإنسان من الآلاء هو تلك الهبة المنقطعة النظير، والعاجز عن وصفها كل لسان، ألا وهي الحريّة، الممكنة صاحبها من تخيّر الأشياء، وإتيان أعماله بما خوّله من سلطان. وما أحسن صنع البشر، لضنّهم بهذه الدرّة الكريمة، وافتخارهم بهذه المزية الفردية. وما كان أضل القوم المدّعين ما لا يقبله العقل، ويمجّه الذوق السليم، وهو حلو المرء من هذه الصبغة الجزيلة القدر والفائدة.

على ان كثيرين من أبناء هذا العصر، ان لم ينكروا الحرية نكرانا تاما، حادوا عن جادة الصواب في ما يرجع الى ماهيتها وطريقة استعمالها. وقد استدرجهم الى هذه الوهدة سوء فهم تعاليم فلسفية اجتماعية كتعاليم الابيكورية والماكيافيلية والماركسية... ومحاولة عمياء لتقليد الماديات الجوفاء الرعناء. فطمحت نفوس متهورة ، شرقا وغربا، الى إساءة العمل، بإسم الحرية. وهناك أحيانا ادّعاء الاستقلال الذاتي، أو الوطني بالتعويل على حضارات بائدة كما حصل في اليونان أو بعض المجتمعات «النامية». وما من وسيلة أنجع هنا لبلوغ المرام، من تمحيص نظرية الحرية وحقيقتها بذاك المحك الفعّال، محك الأخلاق الجامعة الشاملة المانعة. ذلك ان لا أثر لحريّة في معزل عن مقتضيات المسؤولية في إطار زمني ومكاني معيّن.

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه